مالك سمارة *

من أرشيف إلياهو ساسون: يوميات حارة اليهود في دمشق

ثمة صفة/ وسم آخر، غير محكيّ تقريبًا، للصهيونية، عدا عن كونها استعمارية، إحلالية، عنصرية، تصفوية: إنها تمثل في إحدى صورها أول مشروع انفصالي في المنطقة العربية، بما اشتملته من بتر حضاري عنيف لليهود من الشرق، وللشرق من اليهود، وأحيانًا بالدسيسة، كما في حالة يهود العراق الذين فجرت كنسهم وممتلكاتهم بأيدي عملاء صهاينة، والأطفال اليمنيين الذين اختلسوا من آبائهم ليكبروا في كنف آباء أشكناز- وهذا فقط ما نعرفه. يبدو هذا "المشروع الانفصالي"، المدفوع بالدسيسة والمؤامرة، صورة أولى عما أُريد لهذه المنطقة منذ تصافحت يدا سايكس وبيكو: أن تكون بؤرة مرشحة للتقسيم دائمًا على أسس عرقية، أو دينية، أو طائفية، أو جهوية... إلخ؛ وهذا سبب آخر يشرح لماذا نجد لإسرائيل يدًا في كل مشروع انفصالي في المنطقة، بدءًا بالأكراد، وليس انتهاء عند "دولة البجا" التي باتت تلوّح مؤخرًا بالانفصال في شرق السودان.

هذه قراءة بأثر رجعي من الترجمة التي نقدّمها أدناه لمقاطع من ذكريات إلياهو ساسون المبكرة عن دمشق. قد تبدو القرائن في هذا الطرح فضفاضة للوهلة الأولى، لولا أن الحديث يدور هنا عن أول "ضابط اتصال" بين الحركة الصهيونية والعرب المنفتحين على فكرة تقسيم تركات المنطقة ضمن صفقات مرسومة طائفيًا وجهويًّا. فساسون يدعي في مذكراته إنشاء اتصالات مع الملك فيصل بن

* باحث في الشؤون الإسرائيلية.

الحسين، بالإضافة الى رئيس جمهورية لبنان آنذاك بشارة الخوري، الذي يدعي ساسون أنه تبادل معه فكرة شراء جبل عامل، ثم ترحيل شيعته إلى العراق وإحلال الموارنة مكانهم.[1]

وتلك أيضًا قراءة بأثر رجعي من الانتقالة الناشزة والعنيفة التي نجدها في مذكرات ساسون: من بيئة دمشق الوادعة، المتجانسة، التي ظلّت حارة اليهود فيها، على امتداد الحقب والممالك آمنة إلا من قلاقل عابرة، إلى الانحلال والتشتت في أصقاع الأرض، بما في ذلك "أرض إسرائيل"؛ ومن الحشد لمواكب المفتي أمين الحسيني المناهضة للصهيونية، إلى حشد المريدين والمتعاونين -عربًا ويهودًا- في خدمة الصهيونية؛ ومن البيئة الشرقية العربية الأصيلة إلى البيئة الأورو-أشكنازية الهجينة؛ ومن بيت الأب الذي حلّ فيه مسلمو دمشق ومسيحيوها ويهودها ضيوفًا دائمين، إلى دولة لا تقبل إلا اليهود- بل وإلى المشاركة في اللجنة السريّة التي شكّلت في أيار ١٩٤٨ وكانت مهمتها التخطيط لطرد العرب؛[2] ومن الحديث عن طاعة الأب -طبقًا لـ"الوصايا العشرة" ولـ"التقاليد الشرقية"- وإنفاذ أوامره بترك الصهيونية، إلى الانفلات وراءها في السرّ والعلن؛ ومن تعليمه وتنشئته ليكون عضوًا فاعلًا في الحركة القومية العربية ذات التوجهات الوحدوية، إلى انتهائه في الحركة القومية الصهيونية ذات التوجهات الانفصالية. حدث هذا كله لما كانت الصهيونية في أوج صعودها، وبعد أن اتصل ساسون للمرّة الأولى، وهو لم يزل في صباه، بالقيادات الصهيونية التي نفتها تركيا إلى دمشق لشبهة التعاون مع الإنكليز والفرنسيين أثناء الحرب العالمية الأولى.

هذه المقتطفات مدوّنة عن شهادة أدلى بها ساسون لبرنامج "بيت أبي" الإذاعي، الذي كان يقدّمه الصحافي الإسرائيلي المخضرم دان رفيف. تلك الحلقة سجّلت حين كان ساسون وزيرًا للشرطة- أي بين عامي ١٩٦٧ و١٩٦٩ (لا تذكر الوثيقة موعدًا محددًا)، وبعد مسيرة سياسية حافلة بدأها الأخير مديرًا للقسم العربي في الدائرة السياسية التابعة للوكالة اليهودية، ثم مديرًا لدائرة الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الإسرائيلية بعد قيام الدولة، قبل أن يتنقل في مناصب دبلوماسية عدّة، أبرزها تعيينه سفيرًا في تركيا. ويبدو أن ساسون طلب نسخة مدوّنة من أقواله واحتفظ بها في أرشيفه الخاص. ويبدو كذلك أنه عمد إلى حذف وتحرير بعض الجمل لغاية ما، ومنها حديثه عن نشاطه في حملات الدعاية ضد الصهيونية التي كان ينظمها أمين الحسيني على امتداد الأقطار العربية. هنا ترجمة لمقاطع من تلك المقابلة في صورة أسئلة وأجوبة:

المحاور يسأل: كانت ثمّة رابطة متبادلة لـ٢٥٠ عامًا بين دمشق والطائفة اليهودية التي عاشت فيها من جانب، وبين عائلة ساسون من جانب آخر. قبل الحديث عن عاقبة طائفة دمشق وهجرة عائلة ساسون إلى "أرض إسرائيل"، ربّما يجدر أن تحدثنا عن الطائفة اليهودية نفسها في أيام ازدهارها، وعن حياة عائلة ساسون هناك؟

(..) مع انتهاء الحرب العالمية الأولى، بلغ عدد اليهود في دمشق نحو ١٦ ألفًا؛ وكلنا تقريبًا تركزنا فيما كانت تسمى "حارة اليهود"، والتي كانت تناظر "الغيتو"، وفيها تركّزت كل الكنُس والمدارس والكتاتيب. كان التلاميذ يدرسون بالأساس الكتاب المقدس، والمتفوقون منهم كانوا يُرسلون إلى أرض إسرائيل (فلسطين) لاستكمال تعليمهم؛ فمنهم من يصبح مرتّلًا، ومنهم من يصبح لحّامًا (يشرف على طقوس الذبح وفق الشريعة اليهودية)، أو قاضيًا، أو حاخامًا...

عمل أبي تاجر جلود بالتجزئة -واستمرّ في هذه المهنة حين انتقل إلى القدس. كان دكانه في أحد الأسواق المركزية بدمشق- سوق الحرير، وكان ٩٨٪ ممن يحيطون به من التجار والباعة مسلمين. كان أبي معروفًا لدى جيرانه بالتواضع، والاستقامة، ومخافة الله، والرضى بقسمته، وحب مساعدة الضعيف بمعزل عن قوميته ودينه. تلك الخصال، بالذات في بلد شرقي كسورية، لم تحشد له فقط معجبين وأصدقاء -بينهم مسلمون ويهود ومسيحيون- ممن يتعاملون معه، بل أيضا حوّلته إلى محكّم- إلى وسيط وقاضٍ، في مسائل التجارة أو غيرها، وفي ساعات الصباح أو المساء. كلّ يوم تقريبًا حينما نستيقظ باكرًا، كان في بيتنا خمسة، عشرة، أو عشرون شخصًا؛ كل منهم يحمل مشكلة ما.

صورة مدمجة ضمن ملف في «مكور ريشون» عن الياهو ساسون (محاط بدائرة)، نُشر بتاريخ ٢٠١٩/٢/٢٥، تحت عنوان: الجاسوس الذي بنى المخابرات الإسرائيلية بيديه.

كنّا في البيت ثلاثة إخوة. عدد الأشخاص الذين كانوا يأتون للتقاضي، أو طلب الوساطة، أو السؤال، صار يكبر يومًا بعد يوم، بالذات بعد أن انتخب والدي خلال الحرب العالمية الأولى عضوًا في لجنة المجتمع اليهودي في دمشق، ثمّ نائبًا، ثم رئيسًا. لكن الالتماسات التي تقدّم بين يديه كانت تدفعه، في أحيان كثيرة، للذهاب إلى محامٍ طلبًا للمشورة والتعليمات في القضايا التي تطرح على طاولته، وكان يدفع أجر المحامي من جيبه الخاص. بطبيعة الحال، لم تكن تلك الاستشارات تكلّف والدي الكثير من الوقت وحسب، وإنما أيضًا خسارة زبائنه، وخسارة غير يسيرة في مداخيله؛ حتى وصلنا إلى حالة لم يعد في وسعه عندها التغطية على النفقات اللازمة لإدارة البيت- لكسوة أبناء العائلة ودفع رسوم الدراسة لي ولأخي. هكذا، خلّفت تلك الاستشارات والزيارات المتكررة أجواء متوترة عندنا في البيت. لكن أبي ظلّ ممسكًا دومًا بمنهجه، وجادل دائمًا بأنه ينفذ وصية "أحب جارك كما تحب نفسك"... لكن من

ناحيـة أخـرى، تحوّلـت عائلتنـا، بفضـل صنائـع أبـي، إلى واحـدة مـن أكثـر العائـلات حبًّـا ومناصرة في أوسـاط العـرب واليهـود معًـا.

المحـاور بعـد أسـئلة متسلسـلة عـن عائلـة ساسـون التـي عاشـت متماسـكة ومتينـة الروابـط في دمشـق قبـل أن تتشـتّت إلى أصقـاع الأرض مـع تجـذّر المشروع الصهيونـي: ألـم تفكّـر العائلـة، كونهـا قويّـة، بالهجـرة متّحـدة إلى أي بـلاد كانـت؟

كمـا قلـت لـك، هـذا الانفصـال حـدث لسـبب واحـد: نحـن اخترنـا أرض إسرائيـل لأننـا منـذ فـترة الحـرب العالميـة الأولى أقمنـا روابـط ودّ متينـة مـع قيـادات "الييشـوف" الذيـن أُبعـدوا عـلى يـد الحاكـم التركـي جمـال باشـا إلى دمشـق- مثـل عائلـة دافيـد يلـين، عائلـة ميوحـس، المليـح، شـلوش، عنتيبـي، ديزنغـوف. ثـمّ بعـد تواصلنـا مـع هـؤلاء المنفيـين، تواصلنـا مـع المعلمـين العبريـين الذيـن أرسـلوا إلى دمشـق فـور انتهـاء الحـرب العالميـة الأولى لمواصلـة المسـعى القومـي التربـوي التثقيفـي الـذي بـذره المنفيّـون في يهـود دمشـق. هـذا الاتصـال أفـضى إلى ثلاثـة مخرجـات إيجابيـة: أوّلًا، تدشـين مدرسـتين عبريتـين، واحـدة للبنـين وكانـت بـإدارة الكاتـب الشـهير يهـودا بـورلا، والثانيـة للبنـات بـإدارة البروفسـور يوسـف ريبلـين؛ فضـلًا عـن افتتـاح حديقـة أطفـال، وصفـوف مسـائية لتعليـم العبريـة للكبـار؛ ثانيًـا، إقامـة نـوادٍ للمحـاضرة في مواضيـع صهيونيـة ويهوديـة، ولاسـتقبال عـروض وفعاليـات رياضيـة؛ ثالثًـا، تحويـل معظـم سـكان دمشـق (اليهـود) إلى صهاينـة مخلصـين، ثـم هجرتهـم إلى أرض إسرائيـل، وبطـرق غـير قانونيـة عـلى الأغلـب.

حـين كنـت طفـلًا، هـل تذكـر حـالات شـعرت فيهـا، بوصفـك أحـد أبنـاء عائلـة ساسـون، بالمحبّـة والوئـام مـن قبـل قاطنـي دمشـق المسـلمين؟

نعـم، سـأعطيك مثـالًا: عشـيّة انـدلاع الحـرب العالميـة الأولى، حـين كنـت ابـن ١٢ ربيعًـا، أنهيـت تعليمـي الأسـاسي –في مدرسـة "كل الإسرائيليـين رفـاق" (الاليانس)[٣]، وأردت أن أفعل كمـا فعـل أخـواي الأكـبران: أن أجد لي عمـلًا أعـين مـن خلالـه أبـي في نفقـات البيـت التـي زادت وتراكمـت بسـبب نشـاطه المجتمعـي، وتـركِ أبـواب بيتنـا مفتوحـة عـلى مصراعيهـا أمـام كل العابرين. لكـن أبـواي لـم يأذنـا لي بذلـك. أمـي –رحمهـا اللـه– عارضـت بقـوة واحتجّـت بـأن تضحيـة كهـذه سـتثقل ضميرهـا كثـيرًا ولـن تسـتطيع التصالـح معهـا؛ كمـا أن خروجـي إلى سـوق العمـل وأنـا في سـنّ غضّـة، وبتعليـم أسـاسي فقـط، لـن يضيـف إلى العائلـة قـدرًا واحترامًـا. أمّـا أبـي، فبعـد أن تفوقـت في موضـوع اللغـة العربيـة خـلال الامتحانـات النهائيـة، لقـي ضغطًـا متواصـلًا مـن بعـض روّاد بيتنـا العـرب، المعروفـين بنشـاطهم الاجتماعـي، وانتمائهـم لمنظمـات قوميـة مناوئـة لتركيـا، بـأن يتيـح لي اسـتكمال تعليمـي الثانـوي والجامعـي. لقـد طلبـوا عـلى وجـه الخصـوص بـأن أركّـز عـلى اللغـة العربيـة وعـلى التاريـخ العربـي. نحـا اليهـود العـرب أيضًـا في طلباتهـم هـذا المنحـى؛ وطلبـوا مـن أبـي أن يسـمح لي، فـور دخـولي المدرسـة، بالانضمـام إلى بعـض التنظيمـات الشـبابية العربيـة، حتّـى أصبـح، حـين أكـبر وتحـين اللحظـة المناسـبة، واحـدًا مـن كـوادر الحركـة القوميـة العربيـة، وأمثّـل عـبر مشـاركتي هـذه التضامـن الإسـلامي المسـيحي اليهـودي إزاء تحريـر العالـم العربـي مـن الظلـم التركـي القابـع فوقـه منـذ نحـو ٤٠٠ عـام، والحائـل دون تقدّمـه وحريّتـه. ومـن طـرف آخـر، ضغـط أخـواي عـلى أبـي وتعهّـدا بمضاعفـة سـاعات العمـل وتقليـص مصروفاتهـم الشـخصية قـدر الإمـكان للمشـاركة في نفقاتـي التعليميـة (...) هكـذا دخلـت إلى مدرسـة "عزريـا" المسـيحية التـي سـبق صيتهـا اسـمها، وكان معظـم تلاميذهـا مـن أبنـاء العائـلات العربيـة النبيلـة والمـوسرة.

(...)

في مدرسـة "عزريـا"، ولاحقًـا في كليـة سـانت جوزيـف في بـيروت، لـم أكتسـب تعليمًـا ثانويًـا وجامعيًّـا وحسـب –عـلى أهميّتـه– بـل أيضًـا أصدقـاء عربًـا، مسـلمين ومسـيحيين، مـن سـورية ولبنـان والعـراق، ومـن بينهـم مـن أصبحـوا بمـرور السـنوات ناشـطين اجتماعيـين، وأمسـكوا شـيئًا فشـيئًا الإدارة والسـلطة في بلادهـم – ثمـة مـن عـيّن رئيسًـا للحكومـة، ومنهـم مـن عـيّن وزيـرًا، أو نائبًـا في البرلمـان، أو مديـر وزارة، أو رئيـس تحريـر في إحـدى الصحـف، أو أمينًـا عامًّـا في أحـد الأحـزاب. ثـمّ للحقيقـة والتاريـخ، بعضهـم كان لي عونًـا كبـيرًا، ولـم يحـن الوقـت بعـد للحديـث عنـه.

في كل مـرّة يقـرّر فيهـا مفتـي القـدس حـج أمـين

"من الصعب التمييز بين طبائع الإنسان العربي وطبائع اليهودي المشرقي. اليهودي الذي كبر في بلد شرقية هو تقريبًا من البيئة نفسها- من الطابع العربي ذاته. من الصعب ملاحظة اختلاف ما- ربّما الاختلاف الوحيد أن هؤلاء كانوا يذهبون إلى الكنيسة وأولئك إلى المسجد ونحن إلى الكنيس. قبل أن يبدأ العداء بيننا وبين العرب من الصعب القول إنه كان ثمّة اختلافات"

الحسيني الخروج في حملة إشهار ودعاية في البلاد العربية والإسلامية ضد المشروع الصهيوني في أرض إسرائيل، كنت أتطوّع للمساعدة. كان أبي يطوف البلاد العربية أكثر مني، وكان يخالط العرب كتاجر ٩٨٪ ممن يجاورونه (في السوق) هم مسلمون، وكبر في بلد مسلمة حتى سنّ الأربعين. لقد كانت معرفته بالعرب أوثق من معرفتي بكثير، وقد ساعدتني نصائحه كثيرًا في معرفتي بالعرب.

وما النصائح التي قدّمها لك والدك؟ أو بالأحرى: ما كان انطباع أبيك عن العربي وعن شخصيته، وما الذي حمله من كلّ تعاملاته معهم؟

ما زلت حتى اليوم أحب العرب، وقد ورثت هذه المحبة عن والدي. كانت لديه قوّة غامضة ما دفعته دائمًا لخدمة الآخر الضعيف، ولم يكن يلقي بالًا إلى ما إذا كان يهوديًا أم عربيًا، ولذا فقد غرس فينا حب الآخر؛ والآخر في ذلك الزمان كان في الغالب عربيًا- في بيتنا كان ثمّة عرب، وعلى هذا أحببنا العرب، وهذه المحبّة هي ما فتحت أمامي أبوابًا بعدئذ وخلقت ثقة العرب بي.

(...)

من الصعب التمييز بين طبائع الإنسان العربي وطبائع اليهودي المشرقي. اليهودي الذي كبر في بلد شرقية هو تقريبًا من البيئة نفسها- من الطابع العربي ذاته. من الصعب ملاحظة اختلاف ما- ربّما الاختلاف الوحيد أن هؤلاء كانوا يذهبون إلى الكنيسة وأولئك إلى المسجد ونحن إلى الكنيس. قبل أن يبدأ العداء بيننا وبين العرب من الصعب القول إنه كان ثمّة اختلافات؛ كنا نجتمع ونتحرّك سويًّا- نفعل الأمر ذاته.

لكن على الرغم من التقاليد العائلية الراسخة إزاء عرب دمشق، فقد أصاب أمرٌ ما تلك الأجواء الحميمة وجرّ معه أيضًا انقسامًا في الرأي بين إلياهو ساسون وأبيه؟

في ١٩١٩، عندما عاد الملك فيصل بن الحسين -الذي كان ملكًا في سورية حينها ولاحقًا في العراق- من مشاركته ضمن لجنة السلام في سان ريمو، قررت حكومة سورية أن تعدّ له استقبالًا حميمًا وحافلًا، واستدعيت، بمعزل عن الجمهور اليهودي، كل الجماهير المسلمة والمسيحية في دمشق للخروج في مسيرات من أجله. في حفل الاستقبال، والذي شاركت فيه بصفة شخصية كأحد أعضاء المنتدى القومي العربي، هاجم أحد المتحدثين، وهو ناشط فلسطيني يعرف باسم الشيخ عبد القادر نزيفة، الطائفة اليهودية لغيابها عن الحفل، وصوّرها على أنها غير منشرحة لانعتاق العالم العربي وتحرره. نعتها بالخائنة، وادعى أنها تتلقى تعليماتها من قيادات الحركة الصهيونية في القدس، ودعا السلطات إلى التحقيق في المسألة ومعاقبة المذنبين. أقول لك الحقيقة؛ لقد سمعت هذا الكلام، وهدفه كان واضحًا: تأليب المتظاهرين وحملهم على ارتكاب مذبحة باليهود. حينما سمعت ذلك، أدركت أنه ليس من قبيل الصدفة أن الجمهور اليهودي لم يُدع إلى الحفل كسائر الجماهير، ورأيت من كافة الزوايا أن واجبي إفشال مسعى المتآمرين. بمساعدة أصدقائي في المنتدى العربي وتدخل أهاليهم، الذين كانوا على رأس المتظاهرين، وكانوا ذوي تأثير ومكانة في الحكم، حظيت فورًا بموافقة من الملك فيصل بفرصة الحديث في الحفل، وقلت إن كل الكلام الذي قيل على لسان المتحدث الفلسطيني ملفق في مضمونه، وغايته خلق شروخ في الرابطة السورية؛ وقلت إن المجتمع

اليهودي، على قدر ما أعلم، ليس أقلّ إخلاصًا حيال استقلال سورية وسيادتها، وسردت أنه لم يدع إلى الاحتفال كسائر الجماهير، وطلبت أن يفتحوا تحقيقًا. في نهاية حديثي، الذي كان مقتضبًا وحادًّا وفي حضرة الملك، طلبت إذنًا من الأخير في أن ينظّم المجتمع اليهودي في الغداة موكبًا خاصًّا، ليُظهر من خلاله ولاءه لجلالته وللسيادة السورية- وهذا ما كان. في اليوم التالي نظم المجتمع اليهودي موكبا تضامنيًّا في شوارع دمشق الرئيسة، بمشاركة نحو ٥٠٠٠-٦٠٠٠ شخص، وكان على رأسه أبي وسائر أعضاء لجنة المجتمع اليهودي. قوبل هذا الحراك بالتصفيق من الملك فيصل وكل رجال القصر.

هذا الحدث، الذي نشر في كل صحف دمشق والمدن السورية بعناوين بارزة ومدوّية، بعضها إيجابي وبعضها سلبي، قرّبني من الملك فيصل وحاشيته، لكنّه قسم المجتمع اليهودي إلى فريقين.

إلى أي فريق انتمى والدك؟

المؤيّدون - من عدّوا مع أولئك الذين تلقّوا من المنفيين من أرض إسرائيل دروسًا في الصهيونية وآمنوا مثلي بإمكانية حدوث فهم مشترك وتعاون بين الشعبين العربي واليهودي - رأوا في كل ذلك خطوة أولى نحو تحويل هذه النشاط إلى شيء منظم؛ بالذات بعد أن سمعنا باللقاء التاريخي الذي جمع في تلك الأيام الملك فيصل بحاييم وايزمان، وعن حزمه في ما يخص ضرورة تعاون كلتا الحركتين القوميتين - العربية واليهودية. وفي المقابل كان هناك المانعون، الذين عدّوا بالأساس الأكبر سنًّا من بين زعماء المجتمع اليهودي، والشخصيات الدينية، والعائلات الثرية والنبيلة.

ما يعني أن والدك كان من بينهم؟

نعم. لقد رأوا في كل ما جرى محاولة من قبلي للتصادم مع المتطرفين بين رؤوس الحكم ورؤوس الحركة القومية العربية، المعروفين بمناوءتهم للحركة الصهيونية، وخشوا أنهم سيضعون يدهم على السلطة يومًا ما ثم يصبون جام غضبهم ليس علي، ولا على أفراد عائلتي ورفاقي الشباب في "المكابي" ومؤسسات رياضية أخرى- بل على المجتمع اليهودي كله. هناك من استعادوا في ذاكرتهم الضربة التي تلقاها يهود دمشق في المؤامرة التي شهدها القرن الأخير، ومؤامرة اغتيال الراهب المسيحي أثناء زيارته،[٤] كما بدا، إلى الغيتو اليهودي.. ثم لم يستبعد هؤلاء أن مؤامرة كتلك ستقع مجدّدًا على يد القوميين العرب، ولن تتمخّض عن اعتقالات وحسب، بل عن مذبحة شاملة. للأسف، والداي، وأعمامي، وسائر أفراد عائلتي كانوا ضمن المانعين أولئك، وأوعزوا لي بأن أوقف كل فعالية صهيونية وكل نشاط اجتماعي، وأيضًا طلبوا مني أن أوقف زياراتي إلى كل المنتديات العربية، وألا أكتب بعد ذلك للصحيفتين العبريتين اللتين نشطتا حينئذ في أرض إسرائيل: "بريد اليوم" في القدس و"أخبار البلاد" في تل أبيب. وللحؤول دون أي فرصة للانخراط في أي نشاط كهذا خلال وقت فراغي، قرر أبي، بضغط من القيادات الدينية، إشراكي في روابط خيريّة ودينية، مثل رابطة "معين المساكين"، و"صدقة في السر"، و"زيارة المريض"، وغيرها. علاوة على ذلك، أجبرني على الانضمام إليه في الأعياد وفي أيام السبت، وزياراته الخارجية إلى الكنس والصلوات الجماعية، وسماع الدروس الدينية للحاخام المتوفّى عزرا مسلطون في ظهيرة كل سبت، وعلى امتداد ٣-٤ ساعات متصلة.. وأنا، بصفتي شخصًا يتبع بحزم وصية احترام الأب والأم، اتبعت، كما ينبغي، كل ما طلبه مني أبي (بحب ورضا)، بالذات بعد أن وجدت شأنًا كبيرًا في بعض الأمور.

العلاقات بيننا في العائلة كانت كلها مبنيّة على الاحترام الكلي من الصغير للكبير، وألا نتذمّر من أي طلب وتكليف نتلقاه.. هكذا تربّينا، وأقول بكل سعادة إن هذه التقاليد مستمرّة حتى اليوم أيضًا في عائلتي- هكذا يتصرّف أبنائي تجاهي.

كشاب يافع ومفكر، ألم تكن في داخلك مرارة حيال ما أجبرت على تركه؟

لكنني لم أتركه. لبيت ما طلب منّي أبي، لكنّني لم أتركه. لقد أرادوا أن يسدّوا عني أي وقت فراغ حتى لا أواصل العمل الصهيوني وفعلت ما أرادوا، لكنني لم أتركه. قلت إنني وجدت في كثير من الأعمال التي أشركني فيها أبي شأنًا كبيرًا؛ على سبيل المثال: أحببت استيقاظي في كلّ أيام شهر أيلول الساعة الثالثة أو الرابعة على نداء خادم الكنيس: "يا داود باشا، صلاة الاعتذارات،[٥] (كان اسم

أبي المتوفّى دافيد- داود)؛ ثم لا يكفّ الساعي عن ندائه حتى نجيبه: نعم، نعم. وكان كل أبناء البيت، وأبناء البيوت المجاورة، يستيقظون؛ منهم من يسب الخادم ومنهم من يدعو له بالبركة. لكنني وأبي كنا نعدّ كأس قهوة تركية، ثم نسرع إلى الكنيس لقراءة تراتيل "الاعتذارات".

(...)

في الأعياد كنا نلتقي جميعًا، مرّة لدى جدي وجدتي لأمي، ومرّة لدى عائلة أبي. مثلًا عشية عيد الفصح، أتذكر أننا كنا نجلس ٧٠-٨٠ نفرًا في غرفة واحدة. كانوا يعدون المائدة بالأساس من أجل العيد، وكانت الترتيبات كلها وفق العادات الشرقية. هذه العادات انتقلت أيضًا هنا إلى بيتي.

(...)

لكن كما قلت آنفًا، كل تلك النشاطات، الدينية والاجتماعية، لم تحل دون استمراري في عضوية المنتدى القومي العربي وعملي الصهيوني. بعد مرور شهر واحد من موكب يهود دمشق دعانا الملك فيصل عنده. حكى لي عمّا يكنه من محبة للتطلعات القومية للشعب اليهودي، وكنت حينها ابن ١٨ عامًا. طلب مني أن أصدر تحت رعايته وعلى حسابه صحيفة عربية باسم "الحياة"، لتبشّر بالتفاهم والعمل المشترك بين اليهود والعرب في منطقة الشرق الأوسط. استمرّت الصحيفة ٩ أشهر، وتوقّفت فور احتلال دمشق من قبل الفرنسيين وطرد فيصل. كانت الصحيفة تصدر ٣ مرات أسبوعيًا، وحظيت، مقارنة مع سائر الصحف الناشطة تلك الأيام، بانتشار واسع- طبع منها نحو ٧٠٠٠ نسخة- وبمشاركة كتاب مسلمين ومسيحيين ذائعي الصيت في المقالات الرئيسة. في الحقيقة، ينبغي أن أقول إن أبي اجترع هذا الأمر بصعوبة بالغة، وتمنّى ألا يجلب علي أي سوء. لقد طلب مني باسم لجنة الطائفة وباسمه ألا أطرح أي نقد ضد رجالات الحكم، ورؤساء الحركة القومية العربية المتطرفين، وأن أمتنع عن كتابة ونشر أي أمر يخص المجتمع اليهودي. أمّا أمي، والتي تعاطت بإيجابية حيال مرافقتي العرب وانخراطي في المنتدى القومي العربي، فقد باركت اقترابي من القصر الملكي ورجالات الحكم، وطلبت مني أمرًا واحدًا: أن أتذكر دومًا أنني يهودي، وأنني أعيش في المنفى، وفي أرض العبيد، وأن علي أن أكون حذرًا في كل خطوة، وأن أزن جيّدًا كلامي، وألّا أثير غضب المسلمين ولا حسد المسيحيين، ويجدر بي ألا أسبّب للطائفة أي كارثة. أسدت لي أمي تلك النصائح لأنه في مطلع القرن التاسع عشر، حين كانت سورية وأرض إسرائيل لا تزالان تحت الحكم العثماني، عيّن اثنان من عائلة فرحي أمينين على الخزينة، واحد في دمشق والآخر في عكا، وقد أثار هذا الأمر غيرة المسلمين، وأفضى أحيانًا، لأمور هامشية، إلى اشتباكات دامية بحق بينهم وبين اليهود.

حينما انتقل أبواي إلى القدس في العام ١٩١٩[٦]، وبقيت أنا في دمشق نحو سنة ونصف، أمرتني أمي في دمشق، بعد أن سمعت عن رؤية هرتسل في مسألة الدولة اليهودية، ألا أحوّل مكان سكني على وجه السرعة من سورية إلى أرض إسرائيل وحسب؛ بل وأنشطتي العامة من الحركة القومية العربية إلى الحركة القومية الصهيونية.[٧]

الهوامش

١ انظر كتاب: الحاج، بدر، الجذور التاريخية للمشروع الصهيوني في لبنان : قراءة في مذكرات الياهو ساسون والياهو ايلات، ١٩٨٢، بيروت: دار مصباح الفكر.

2 Morris, B. (1994). The birth of the Palestinian refugee problem, 19471949-. Cambridge U.P. P 312.

٣ أوّل منظمة إسرائيلية عالميّة حديثة، وتعرف اختصارًا باسم "ألاينس". تأسست في العام ١٨٦٠ حاملة شعارات "تحرير اليهود" وضمان مساواتهم مع السكان المحليين وتعزيز شعورهم بالاستقلالية والمقدرة على تمثيل قضاياهم والدفاع عنها. المدرسة المذكورة في المتن افتتحتها المنظمة في دمشق في العام ١٨٦٠، واستمرّت في فترتها الأولى مدة خمس سنوات، قبل أن يُعاد افتتاحها مرة أخرى في العام ١٨٨٠، وتُلحق بها مدرسة أخرى للإناث في العام ١٨٨٣.

٤ يقصد في الأولى غالبًا مقتلة الدروز والمسلمين والموارنة في لبنان، والتي طاولت اليهود اتهامات بتأجيجها وجرّت عليهم أعمالًا انتقامية؛ ويقصد بالثانية حادثة قتل راهب من الفرنسيسكان وخادمه المسلم أثناء زيارة حارة اليهود في دمشق.

٥ "سليحوت" بالعبريّة؛ وهي صلوات يؤديها اليهود قبل الفجر على امتداد ليالي شهر أيلول العبري وحتى موعد عيد الغفران.

٦ كانت هناك حركة هجرة نشطة في تلك الفترة مشفوعة بمجاعة في العام ١٩١٥، وتردّي الأحوال الاقتصادية، وشملت المسيحيين كذلك. ولم تكن الهجرات في حينها إلى فلسطين حصرًا، إذ هاجرت أعداد وفيرة إلى الأمريكيتين.

٧ يمكن قراءة الحوار كاملًا (باللغة العبرية) على موقع أرشيف الدولة الإسرائيلي. الوثيقة بعنوان: "مقاطع من مذكرات إلياهو سانون في المرحلة المبكرة من حياته"، رمز الوثيقة: ب-٤٦٩٥/٢.